

الإنسانية والأساليب التي تركز على الإنسان

بول رودواي

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

أثرت الفلسفة الإنسانية على ممارسة علم الجغرافيا بشكل متنوع ، لا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين ، وذلك في رد فعل كبير على العلوم الاجتماعية الوضعية . ظهرت هذه الفلسفة في شكل "الجغرافيا الإنسانية" ، مما منح علماء الجغرافيا فرصة **لإعادة التأكيد على أهمية التجربة الإنسانية** ، أي الاهتمام بالفرد وخصائصه ، والتجربة الذاتية للأشخاص والمكان ، وجغرافيا المشاعر والانفعالات والاندماج والمشاركة . طور علماء الجغرافيا الإنسانية استراتيجية بحثية مميزة ومجموعة من الأساليب التي تركز على الإنسان (أو تعديلات على المناهج المتاحة) **لشرح فهم دقيق وعميق للعلاقة بين الإنسان والمكان، وجغرافيا العالم كوطن** (تيوان، 1974؛ 1977؛ ريلف، 1976؛ 1985؛ سيمون وموجيراور، 1985) . عند استعراض أكثر من عقد من الزمان من الجغرافيا الإنسانية ، لاحظ بوكوك الخصيصة الرئيسية : "الحساسية تجاه الناس والأماكن محل الدراسة ، والاحترام لها ، والتعاطف معها" (1988: 3) .

استندت الجغرافيا الإنسانية إلى فلسفات مختلفة ، مثل الفلسفة الأيديالية والوجودية ، وبشكل خاص الفلسفة الظاهرية (خاصة أعمال هايدغر وهوسرل وميرلو-بونتي) . على عكس علماء الجغرافيا الوضعية (مع اهتمامهم بتوثيق الحقائق ، والبحث عن القوانين العامة ، والتفسير العلي - السببي) ، كان علماء الجغرافيا الإنسانية أكثر اهتمامًا بالتجربة الذاتية ، وبالخصوصية والتميز . كان التركيز على **تفسير ومعنى ماهية الإنسان والعيش في العالم** (تيوان، 1979؛ ريلف، 1985) . سعت الأساليب الإنسانية إلى شرح معنى التجربة الفردية (والاجتماعية) ، وحس المكان (والمعنى العالمي) من منظور الإنسان في العالم أو وجوده فيه (ينظر هايدغر، 1983) . الباحث متأثر بطبيعته بالبيئة التي يدرسها ، وهذا التأثير ينعكس على نظرة الباحث لنفسه وعلى فهمه للعالم (ينظر بوكوك، 1988: 6) . **لا يمكن وجود "حقائق" خالية من القيم الشخصية للباحث** (أولسون، 1980) .

وقد لوحظ أن الأفكار الإنسانية في علم الظواهر والفلسفة الوجودية لم تكن سهلة التطبيق في الممارسة العملية (هاوارد وآخرون، 2002: 41) . مع ذلك ، نجح عدد من علماء الجغرافيا البارزين في تطوير منهجيات بحثية عملية (مثل راولز، 1976؛ سيمون، 1979؛ بوكوك، 1992) . اعتمد بعض علماء الجغرافيا الإنسانية **استراتيجيات** تعتمد الباحث للنصوص على التفكير الذاتي ، وهي في جوهرها "مركزة حول الباحث" ، أو تعتمد بشكل كامل على **تفسير والصور والممارسات الثقافية** . يهدف هذا التركيز على القراءة المتعمقة والتأمل النقدي إلى الكشف عن الخصائص الأساسية والمميزة للمناطق والمجتمعات (مثل تـوان، 1974، 1979، 1993؛ بوكوك، 1981؛ سيمون، 1985) . وفي النهاية ، يبقى التفسير شخصياً ، وقد يكشف لنا عن الباحث نفسه بقدر ما يكشف عن موضوع البحث (موناجان، 2001) . تعتمد المناهج التي تركز على الإنسان على نهج تجريبي أكثر ، وقد طورها علماء الجغرافيا الإنسانيون لشرح واستكشاف التجربة الجغرافية للأفراد والمجتمعات في أماكن وزمان محددين . وقد تم تطوير أساليب الاتصال المباشر والتفاعل والمشاركة في هذا النهج (مثل: راولز، 1976؛ سيمون، 1979؛ بوكوك، 1996؛ ميث، 2003) . تركز هذه المقالة على هذا النهج الإنساني كونه نهجاً عملياً (هاربر، 1987) .

خصائص الاستراتيجية الإنسانية على الرغم من الإشارة إلى الفلسفة الإنسانية ، لم يميل علماء الجغرافيا إلى تبني تقنيات فلسفية محددة ، بل إلى تطبيق منهجيات البحث القائمة في علم الجغرافيا والعلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل أكثر عملية . لذا ، فإن الخصائص الأساسية لهذا النهج تكمن في اختيار موضوع الدراسة ، وتحديد الأدلة ، وقواعد ادعاءات الحقيقة . بشكل خاص ، تستند هذه الاستراتيجية البحثية على ثلاث أفكار رئيسية مترابطة :

• الرغبة في تجنب فرض الأفكار المسبقة (المفاهيم ، النظريات) والعودة إلى الواقع كما هو (ينظر هوسرل، 1983) . يصف الفيلسوف هيوماني هيوماني هذا النهج أو هذا الموقف بأنه "السماح للأشياء بأن تظهر كما هي في طبيعتها" (1983: 58) . ويشمل هذا الموقف التواضع والاحترام والتعاطف مع العالم (ينظر بوكوك، 1988؛ ريلف، 1985؛ تون، 1971).

• نهج مركزي حول الإنسان ، بمعنى أن المعرفة ذات المعنى تبدأ وتنتهي بالوعي البشري ، أي الذاتية . باختصار، تتبع معرفتنا بالعالم من وعينا البشري وعلاقتنا بالأشياء (الأشخاص ، الأماكن) التي تشكل بينتنا اليومية الفردية والاجتماعية (أو "العالم المعيشي") . تنشأ معرفتنا بالعالم من خلال علاقتنا الواعية به - المشاعر والأحاسيس والذكريات والتوقعات . من المستحيل الحفاظ على نظرة موضوعية ومستقلة للعالم. فما ندرس يؤثر فينا ونحن بدورنا نؤثر فيه.

• الفهم جوهره الشمولية، ولكنه جزئي ومتشعب ، إذ يسعى البحث إلى فهم تعقيد وجودنا في العالم أو مسكننا (ينظر هايدغر، 1983) . لذلك ، يهتم علماء الجغرافيا الإنسانية بالكيانات الشاملة والمتغيرة باستمرار - التجارب والأماكن والعالم الذي نعيش فيه . كما يلخص بوكوك هذا النهج : ينبذ النهج الإنساني فكرة الفصل بين العالم الخارجي الموضوعي والعالم الداخلي الذاتي أو المفهوم . العالم هو "العالم الذي نعيش فيه" وهو كما يبدو لنا - وهذا لا يعني تبني نظرية الذاتية المطلقة ، التي تنطلق من فكرة أن العقل يخلق عالمه الخاص . هناك عوالم أو حقائق متعددة ومتشعبة لا يمكن دراستها إلا من منظور شامل . مرة أخرى ، ينبذ النهج الإنساني فكرة الفصل بين الفاعل والمعلوم ؛ بل يعدهما متداخلين ومتفاعلين ومتأثرين ببعضهما البعض . وبالتالي ، فإن أي استقصاء مرتبط بالقيم . (1988: 2) .

بمعنى آخر ، فإن النهج الإنساني بهذا المعنى لا يولد مجموعة من الأساليب المحددة والمتخصصة ، بل يولد نهجا أو موقفاً . ويتم التركيز على الشمولية ، والمشاركة ، والتعاطف ، والتفسير ، والاستدلال ، والصدق والثقة . لذلك ، قام علماء الجغرافيا الإنسانية بتكييف وتطوير عدد من المناهج المتاحة - لا سيما الملاحظة بالمشاركة ، والمقابلات المتعمقة ، والأساليب القائمة على العمل الجماعي - بالإضافة إلى قراءة النصوص والصور والمعتقدات الثقافية تفسيراً وتحليلاً . الممارسات والتأمل النقدي في مشاركة الباحثين في عملية البحث كونهم "طرفاً مشاركاً" في البيئة محل الدراسة . التعاطف والمعرفة التجريبية .

على مدى سنوات عديدة ، استكشف دوغلاس بوكوك مفهوم المكان من خلال مجموعة من استراتيجيات البحث القائمة على التعاطف والتجربة . ومن الأمثلة على ذلك تسجيل صوتي لـ "صورة صوتية لمدينة كاتدرائية" (بوكوك، 1987؛ تعليق، 1988ب) ، ودراسة تجربة السياح في "منطقة كاثارين كوكسون" (بوكوك، 1992) ، وتطوير أنشطة ميدانية عملية لتعزيز مشاركة الطلاب وتفهمهم للبيئة (بوكوك، 1983) . ويستند التزام بوكوك الطويل الأمد إلى نهج عملي يركز على الإنسان ، ويقوم على فكرة أن "علم المعرفة القلبي يتعلق بالمعرفة المكتسبة من خلال التواصل والاندماج ، وهو مبني على مشاركة عميقة وإحساس دقيق" (بوكوك، 1996: 379) . ويتجلى هذا النهج الشخصي بوضوح في دراسته الموسعة لمفهوم المكان في كنيسة

الجليل في كاتدرائية دورهام (بوكوك، 1996). نهجه يستند إلى الفلسفة الظاهرية ، ولكنه عملي ومتعدد الأوجه ويعتمد على التأمل الذاتي .

وقد استغرق هذا المشروع أكثر من عقدين من الزمن ، حيث كان بوكوك "في رحلة شخصية ، يوثقها في مذكراته" ، حيث "كان الكلام والكتابة أمراً شخصياً ، ويعبر عن محاولة للتعبير عن مشاعر ورغبات داخلية متعددة" (1996: 384) . من خلال دراسة الأدبيات حول تاريخ الكنيسة ومعانيها ، والزيارات الشخصية المتكررة والتأمل ، والملاحظة والحوار مع الزوار الآخرين ، سعى بوكوك إلى فهم "السمة الفريدة لهذا المكان" . يتطلب هذا النوع من التعاطف والمعرفة التجريبية الاحترام والصبر والتأمل النقدي ، مستفيداً من التجربة الشخصية والأدبيات والملاحظة . إنه سعي وراء المعرفة الأصيلة . يتميز منهج بوكوك بالشمولية والبعد التجريبي والعمق الشخصي (حسباً وعاطفياً) والتأمل الذاتي (ينظر أيضاً بوكوك، 1983).

لا يسعى هذا المنهج إلى فرض نظريات سابقة أو اختبارها ، ولا يسعى إلى الحياد المطلق، بل يسعى إلى المشاركة في الظاهرة أو التفاعل معها ، وإيجاد جوهر المكان من خلال تسهيل إظهارها أو السماح لها بالظهور من خلال تجربة الباحث الشخصية. وفي خاتمة بحثه المهم ، يكتب بوكوك : "الجليل هو عالمي... رسوماتي تعبر عن تجربتي الشخصية في المعرفة من خلال الفهم المتبادل : لقد منحني العالم نفسه بقدر ما فتحت نفسي له . نتيجة هذا التفاعل هي بناء اجتماعي . أنا جزء من الإنسانية ، وأشارك في ثقافة ولغة محددة : والجليل بدوره عالم غني بالمعاني المترابطة على مدى ثمانية قرون" (1996: 384).

على الرغم من أن الباحث في هذه العملية يصبح بمثابة وسيط تظهر من خلاله الظاهرة (سمات كنيسة الجليل) ، إلا أن البحث يستند إلى أدلة أكثر من مجرد التجربة الشخصية للمكان . استند بوكوك إلى نصوص عن تاريخ وتقاليد كنيسة الجليل ، وملاحظة رواد المكان وردود أفعالهم . ومع ذلك ، في هذا المنهج ، يكون الباحث متفاعلاً بشكل شخصي ، "فقد تغيرت وأصبحت أكثر ثراءً" (1996: 384). الكنيسة ليست مجرد موضوع للدراسة ، ولا يُنظر إليها من بُعد موضوعي ، بل هي موضوع يتفاعل معه الباحث بشكل وثيق ، "موضوع كنت سعيداً بالتفاعل معه" . لذا ، فإن العلاقة وثيقة ومتبادلة ، وتتضمن الاحترام والصبر للسماح للكنيسة "أن تكشف عن نفسها في وقتها المناسب" (1996: 384).

لا يسعى الباحث إلى التحقق من نظرية مُسبقة ، بل إلى إثبات صحة معرفة محددة بالمكان . لذلك ، يُشير بوكوك إلى كتابه بأنه رسم تخطيطي أو ترجمة أو تفسير ، ويؤكد أن نجاحه يُقاس "بحسب مدى قدرته على نقل إحساس بالانتماء إلى المكان ، وإقناع القارئ ، وإثبات صحة هذا الإحساس" . إن مقارنة الكلمة بالواقع هي التحدي الذي يواجه كل من الكاتب والقارئ (1996: 384) . ويصف بوكوك كتابته بأنها "في المقام الأول حديث مع النفس ، حيث يكشف النص عن ذات الكاتب بقدر ما يكشف عن العالم الموصوف" (1996: 385-386) . ووفقاً لغيره من علماء الجغرافيا الإنسانية (لا سيما تيوآن، 1999؛ رولز، 1976) ، يعد بوكوك هذا النهج رحلة استكشاف الذات بقدر ما هو استكشاف للعالم .

ومن الناحية الأخرى ، فإن عملية كتابة البحث قد تكون تناقضية وربما ضارة ، لأنها تُضفي نوعاً من الثبات أو الأولوية على رؤية معينة (جزئية أو لحظية) ، وتُعيد عن الموضوعية . باختصار ، فإن المعرفة والفهم الحقيقيان والمتطوران ، في سياق التعامل مع المكان من منظور ظاهراتي ، ينبضان بالحياة من خلال التواصل المستمر والتأمل . الكتابة ، رغم أنها وسيلة لنقل هذه المعرفة والفهم ، أقل مصداقية من التواصل المباشر . ويؤكد بوكوك أن الكاتب لا يشارك سلطته مع موضوع بحثه فحسب (كما ذكر سابقاً) ، بل أيضاً مع القارئ الذي يتفاعل مع النص (1996: 386؛ ينظر أيضاً 1988). لذا ، يُعرض الحقيقة دائماً على أنها

متغيرة ومتشابكة وجزئية ، ولا يمكن لأي نص مكتوب (ورقة بحثية ، على سبيل المثال) أن يكون بياناً نهائياً ، بل يجب أن يكون رسماً تخطيطياً ، ووسيلة لتشجيع القارئ على التأمل والبحث عن الحقيقة .

يُظهر هذا العمل **أن المعرفة عملية وليست نتاجاً** ، ويؤكد على التواضع والاحترام اللذين يجب أن يتحلى بهما الباحث / الكاتب والقارئ / المفسر . يُعد الانخراط الشخصي العميق مع المكان ، من خلال زيارات متكررة لكنيسة الجليل ، والملاحظة ، والتأمل الهادئ ، والتفكير ، جوهر الطريقة المنهجية . هذا ليس عملية سريعة ، بل يتطلب زيارات متكررة ، وقضاء وقت في الانغماس في جو المكان ، وملاحظة بيئته الحياتية والتأمل فيها . ويتم استكمال ذلك بقراءة النصوص حول تاريخ المكان ومعانيه ، ليس لتحديد "الفرضيات" لاختبارها ، أو لفرض أفكار مسبقة ، بل لاستكشاف مسارات التفكير والفهم . يتم تعليق الحكم للسماح للظاهرة بالظهور ، "ليتحدث المكان عن نفسه" .

بدلاً من تقنيات الملاحظة وطرق التفسير المحددة ، نعتمد مبادئ الإدراك الشخصي - الصبر ، والاحترام ، والملاحظة ، والاستماع ، والتأمل ، والتحقق . المعرفة الشخصية والنهج التشاركي يوضح عمل بوكوك نهجاً شخصياً وعميقاً ، واستراتيجية ذاتية التفكير . سعى العديد من علماء الجغرافيا إلى تبني نهج اجتماعي ، والانخراط مع الأفراد والمجتمعات . اعتمدت هذه الأساليب التشاركية على المقابلات المتعمقة ، ومناقشات المجموعة ، وسجلات التفكير ، وتقنيات الملاحظة للمشاركين كمصادر رئيسية (ينظر راولز ، 1976؛ 1978؛ 1988؛ سيمون ، 1979؛ رودواي ، 1988؛ هاربر ، 1987) . هنا ، يتم السعي إلى فهم أصيل من خلال مفهوم المعرفة المشتركة ، أو "المعرفة الشخصية" .

لاحظ غراهام راولز (1978: 175-176) معضلة : المعرفة الذاتية يصعب الوصول إليها لأنها تكمن في مستوى المشاعر الفردية ، والمعرفة الموضوعية غالباً ما تكون مجردة ومبسطة ، وبالتالي بعيدة عن التجربة الحقيقية . استناداً إلى ماسلو ، يجادل بأن هناك نوعاً ثالثاً من المعرفة : المعرفة الشخصية . أمثلة على ذلك : معرفة صديق لصديقه ، أو حب شخصين لبعضهما ، أو معرفة الوالد لطفله أو العكس (وهو ليس بالضرورة متبادل) . الخصائص الرئيسية... هنا ، يُقصد أن المعرفة متطورة وغير كاملة ، وتستند إلى علاقة بين الفرد (المتعلم) والعالم (الأشياء أو الكائنات) . وتتجلى هذه المعرفة في الأنشطة اليومية ، والعلاقات الشخصية ، والحوارات ، والإيماءات والأفعال . فالشخص المتعلم متفاعل مع ما يعرفه ، فهو يشارك فيه ، ويتأثر به ، ويؤثر فيه .

لا توجد هنا مسافة أو انفصال ، بل توجد حميمية وتفاعل . إنها علاقة حسية وعاطفية . قد تكون المعرفة شعوراً في حد ذاته ، أو شيئاً يمكن التعبير عنه . ويشمل مفهوم المعرفة الشخصية مبدأ التعاطف والإحساس والحدس . في منهج راولز ، تم كسر الهرمية التقليدية بين الباحث (المتعلم) والطرف الآخر (الموضوع الذي يُدرس) ، وأصبحت عملية البحث شراكة . أصبح الثقة والصداقة عنصرين مهمين في علاقة الباحث بالمشاركين . وصف راولز علاقته مع أحد المشاركين ، ستان ، بأنها صداقة قوية ، شملت التسوق معاً والجلوس في الحانة ، بالإضافة إلى المحادثات الرسمية في منزل ستان لمواصلة البحث . تجلى هذا التقارب في التأثير الذي تركه وفاة ستان على راولز نفسه ، وهو تناقض بين "حساسيته الإنسانية وهدفه العلمي" (1976: 19) .

في كتابه "أسرى المكان : استكشاف التجربة المكانية لكبار السن" (1976) ، استخدم غراهام راولز منهجية إنسانية تركز على الإنسان . تحدى عمله فكرة أن الباحث هو الفاعل المعرفي وأن كبار السن هم موضوع للدراسة والبحث . بدلاً من ذلك ، عمل مع مجموعة من كبار السن ، مستخدماً تقنيات المقابلات المتعمقة ، والمشاركة في الحوار ، وتبادل الآراء ، وملاحظة حياتهم اليومية . سعى راولز إلى تجاوز المفاهيم المسبقة في الدراسات حول التجربة المكانية (والاجتماعية) لكبار السن ، وفهم تجربتهم كما يرونها ويعيشونها

. لم يقتصر اهتمامه على فهم دقيق ومتكامل لحياة الأفراد من خلال التواصل الشخصي ، بل امتد ليشمل منهجاً شاملاً لدراسة الأفراد في بيئاتهم المنزلية والاجتماعية ، أي "عالمهم الخاص" . وقد كان عنصر الصداقة والثقة أساسياً في عملية البحث . وفي كتابة بحثه ، اختار رولز تقديم مجموعة من القصص القصيرة التي تسلط الضوء على شخصيات المشاركين الخمسة ، وبيئاتهم الحياتية ، وتجاربهم الفريدة .

وصف رولز (1976) منهجه في البحث بأنه استدلالي ، حيث اعتمد على جمع الأدلة من المحادثات والملاحظات اليومية ، بالإضافة إلى استعراض آراء المشاركين . ولتحقيق مصداقية فهمه لحياة المشاركين ، لم يسعَ رولز إلى مطابقة استنتاجاته مع الأدبيات أو النظريات الأكاديمية السابقة ، بل اعتمد استراتيجيتين أساسيتين : البحث عن أوجه التشابه والمواضيع المشتركة في تجارب وتأملات المشاركين ، ومشاركة تفسيراته معهم لمناقشتها وتطويرها ، وصولاً إلى فهم دقيق ومتكامل . باختصار ، لم تكن عملية البحث استدلالية فحسب ، بل تفاعلية وعملية تفاوضية ، شملت تبادل الآراء والتصحيح المستمر لتحديد المواضيع الرئيسية . وقد حرص رولز على استخلاص استنتاجاته بشكل أساسي من تجارب وتأملات المشاركين ، أي من "نص" تجاربه معهم . ولتقليل أي تحيز في تفسيره ، استخدم عبارات المشاركين ، وعرض النتائج عليهم لمراجعتها . وصف رولز دوره بأنه "مترجم" ، وهو مصطلح استخدمه بوكوك أيضاً . ووصف العملية بأنها علاقة مفتوحة ، مع التركيز على تبادل الأفكار . وأصبحت عملية البحث "عملية إبداعية مشتركة... لذا ، كان دوري هو ترجمة هذا النص واستخلاص المواضيع الجغرافية الأساسية ضمن إطار مفاهيمي متكامل" (1976: 39).

في سعيه لتوسيع نطاق بحثه ليشمل ما يتجاوز المعرفة المكتسبة عن حياة الأفراد ، وضع رولز نموذجاً إدراكياً . يتألف هذا النموذج من تحديد أربعة أبعاد للتجربة الإنسانية : التفاعل بين المكان والزمان ، والبعد الجسدي والمعرفي ، والحي السكني المعاصر ، والمشاركة غير المباشرة في البيئات المختلفة . تتداخل هذه الأبعاد وتتفاعل ديناميكياً بطريقة فريدة في حياة كل مشارك . ومع ذلك ، لم يقدم رولز هذه الأبعاد كنظرية أو نموذج مجرد ، بل كإطار عمل ديناميكي للتأمل في قصص حياة الأفراد ، ونقطة انطلاق لأبحاث مستقبلية تتناول العلاقة بين الإنسان والمكان . يلخص رولز أسلوبه قائلاً : "إن السعي إلى بناء علاقات وثيقة هو جوهر استراتيجية البحث . لقد بنيت علاقات شخصية قوية مع خمسة كبار في السن . استندت استنتاجي إلى ما يقارب عامين من التواصل مع هؤلاء الأفراد" (1976: xviii).

مع أن أكثر مراحل التفاعل إثارة كانت خلال فترة ستة أشهر تقريباً ، إلا أن طبيعة هذا التفاعل المطول نموذجي لهذا النوع من الأساليب البحثية التشاركية والشرحية والواقعية . تأملات في استراتيجية إنسانية : يصف بوكوك النهج الإنساني بأنه يعتمد بشكل كبير على حدس الباحث ومبادراته . لذا ، يعتمد النجاح أو الفشل على القدرة الشخصية والصفات الشخصية ، وهو أمر غير مألوف في الدراسات التقليدية . العمل الإنساني هو تأمل فردي وليس اجتماعي . وهو نهج مركّز على الإنسان ، يركز على دور الفرد بدلاً من البنية الاجتماعية (1988: 5) . مع أنه لا يعتمد على الشرح البنيوي ، إلا أنه من خلال المعرفة الشخصية والنهج التأملي الجماعي ، يمكن القول إن النهج الذي يركز على الإنسان يمكن أن يكون تأملياً اجتماعياً أيضاً . ومع ذلك ، فإن جوهر النهج الإنساني هو أن المعرفة ذات طبيعة شخصية ، وتكمن في العلاقة بين الباحث وموضوع البحث . على الرغم من أن علماء الجغرافيا الإنسانية يدّعون امتلاكهم معرفة "أصلية" من خلال التأمل الذاتي النقدي والتعاطف والتفاعل مع الأفراد والتفاوض معهم ، إلا أن نجاح هذا النهج يعتمد في نهاية المطاف على جودة العلاقات الإنسانية التي تُبنى خلال البحث ، وعلى نزاهة الباحث وأمانته . بالنسبة لعلماء الجغرافيا الإنسانية ، فإن المعرفة ليست نتاج عملية ثابتة ، ولا يتم اختبارها وفقاً لظواهر قابلة للتكرار . بل إن المعرفة عملية ديناميكية ، وهي نتاج التفاعل والتجربة . إنها جوهرية وطاردة وطارئة بطبيعتها .

يجب على الباحث أن يواصل التأمل النقدي في عملية البحث ودوره فيها ، وأن يطور الأساليب المستخدمة بما يتناسب مع سياق الدراسة . كما أن كتابة نتائج البحث عملية معقدة ، لأنها تجعل المعرفة ثابتة ومجردة ، وتفصلها عن السياق الحقيقي للظاهرة التي تم دراستها . وقد تم تطوير استراتيجيات متعددة للتغلب على هذه المشكلة . يسعى بعض الباحثين إلى مشاركة نتائج بحثهم مع المشاركين ، وإشراكهم في تطوير التفسيرات وتحسين تقرير البحث (راولز ، 1976؛ رودوي ، 1987). بينما يسعى آخرون إلى تعزيز مصداقية نتائج البحث من خلال التأمل الذاتي المستمر، ودعوة القارئ إلى مواصلة عملية التأمل والتحقق من النتائج بناءً على تجربته الشخصية (بوكوك ، 1988 ، 1996) .

وقد تعرضت الأساليب التي يعتمد عليها علماء الجغرافيا الإنسانية لانتقادات . بسبب موضوعيتهم الواضحة . ومع ذلك ، كما أشار عدد من علماء الجغرافيا الإنسانية ، فإن الأهم هو تطبيق "اختبارات التحقق المناسبة" (بوكوك ، 1988: 6) لتقييم نتائج البحث . بما أن المعرفة تُعرّف بأنها عملية معرفية مستمرة وغير مكتملة ، وتستند إلى شبكة من العلاقات بين الباحث والظواهر المدروسة (بما في ذلك أفراد البحث والقارئ) ، فإن أي تقييم لنتائج البحث يجب أن يكون متسقاً مع هذا السياق ومحدوداً (قد تكون كلمة "مؤقت" مناسبة) . إن مفهوم التحقق في العلوم الوضعية ، الذي يعتمد على مجموعة مفاهيم ونظريات ونتائج بحث سابقة مُقررة مسبقاً (أُجريت في وقت ومكان مختلفين وباحث مختلف، إلخ) ، لا يكفي لتقييم أدلة المعرفة التعاطفية والخبرية والتفاعلية . يجب أن يأخذ التقييم في الحسبان شخصية الباحث وأدائه ، وطبيعة العلاقات التي يراها مع ظواهر بحثه (البيئة ، أفراد البحث ، إلخ) ، والتصميم والإجراءات المنهجية المستخدمة لجمع النتائج (وكيف تمت صياغة النتائج وعرضها) .

انطلاقاً من الفلسفة الظاهرية ، استخدم علماء الجغرافيا الإنسانية مصطلح "الأصالة" بكثرة . هنا، يؤكد مفهوم "البرهان" أو الحقيقة على أساس العلاقات الإنسانية الشخصية في الحياة اليومية ، والتفاعل العملي في المعرفة بين الأشخاص ، والانسجام في فهم الواقع . لا يمكن تعريف الأصالة بسهولة ، بل يتم تأكيدها من خلال التجربة الحياتية ، من خلال تعاطف حقيقي أو فهم الظاهرة كما هي في جوهرها . يصف بوكوك هذا بـ "التأكيد البيئي" ، ويقول إن "الاختبار النهائي ليس فقط في مدى إقناع النتائج (حسّ المشاهدة) ، بل في مدى فائدتها وتأثيرها على القارئ" (1988: 7) . بمعنى آخر، هل نتائج البحث أو تقرير البحث يُثير لدى القارئ نوعاً من الانخراط العاطفي أو الإدراك تجاه الأشخاص (الشخصيات) والأماكن والتجارب التي تم الكشف عنها ، مما يُضفي معنى أعمق للواقع ، يشبه الإدراك الجمالي ؟

من الناحية التقنية ، فإن اختبار الأصالة لا يمكن في التحقق من حقيقة مجردة أو علاقة سببية ، بل في نوع من التأكيد أو الإثبات ، وفي النهاية ، في مشاركة رؤية شاملة لشخصية أو جوهر المكان ، وأهله ، وحياتهم اليومية . لا يمكن اختبار الأصالة الحقيقي في نتائج البحث المجردة (وبالذات النظريات) ، بل في استجابة الأشخاص المدروسين (سواء كانت نتائج البحث تتوافق مع حياتهم وظروفهم) واستجابة القراء (وخاصة الباحثين الآخرين الذين شاركوا في هذا النوع من البحث التفصيلي والعميق والتعاطفي والعملي). إن التركيز على الخاص والفريد والمتطور له بالتأكيد آثار على أي تعميمات أو ادعاءات لفهم أوسع للحالة الإنسانية والجغرافيا .

ومع ذلك ، يسعى الباحثون في العلوم الإنسانية إلى تحديد رؤى أعم يمكن "إثباتها" في سياقات أخرى . على سبيل المثال ، حدد سيمون (1979) نطاقاً من الانخراط البيئي من الشامل إلى المنفصل؛ وخلص راولز (1976) إلى أربعة أساليب للإدراك ؛ وطور ريلف (1976) تصنيفاً لتجربة المكان من الداخل والخارج . هذه التعميمات ليست محاولات لتحديد قوانين أو علاقات سببية ، وليست نظريات قابلة للاختبار ؛ بل هي مجرد تلخيصات لتوجيه التفكير النقدي في المستقبل . قد يبدو هذا في الظاهر أنه يخلق إطاراً افتراضية

للبحوث المستقبلية ، لكن كل باحث كان حريصاً على التأكيد على السياق الخاص لرؤيته والطبيعة المؤقتة لنتائجه . من منظور إنساني ، فإن جميع الادعاءات بالحق هي ذاتية ، و... بناءً على الظروف الخاصة لتحقيقها . قد يستنتج الباحثون التجريبيون "الحقيقة" من الاستدلال الإحصائي ، ولا سيما قابلية التكرار في الظواهر . أما الباحثون الإنسانيون ، فهم أكثر ميلاً إلى الاعتماد على "الاستدلال المنطقي" من خلال دراسة الحالة . ويشير بوكوك إلى أنه "لا يتعلق الأمر بأن الحالة الخاصة تمثل العمومية ، بل إن العمومية لا تنطبق على الحالة الخاصة" (1988: 6) .

ما وراء الجغرافيا الإنسانية يواصل التراث الجغرافي الإنساني تأثيره في الاهتمام الحالي بالمنهجيات التي تركز على الإنسان - استخدام التفكير الذاتي واستراتيجيات السيرة الذاتية (مثلاً: كروس، 2003)، وأساليب الملاحظة بالمشاركة (مثلاً: ماون، 1998)، والمقابلات المتعمقة ومجموعات التركيز (مختلفة في مجلة Area، 1996) . اعتمد الباحثون الجغرافيون النسويون على مجموعة متنوعة من الأساليب ، الكمية منها والنوعية ، واستخدموا أيضاً استراتيجيات التفكير الذاتي والتعاطف (مثلاً: مجموعة دراسات المرأة والجغرافيا، 1997) . التزم الباحثون الجغرافيون "النشطون" التزاماً جذرياً بالمنهجيات التي تركز على الإنسان ، سعياً إلى التفاعل المباشر مع الناس والأماكن ، وتحديد دور سياسي للباحث كعامل تغيير (مثلاً: تيكنيل، 1995؛ روتليج، 1997).

ومع ذلك ، فإن هذا العمل يركز على فلسفات وتقاليدي بحثية مختلفة ومتنوعة ، مثل المعرفة السياقية (روز، 1997)، والنظرية المتجذرة ، ونظرية الشبكة الاجتماعية . مع أن هذه "الجغرافيات الجديدة" تخلت عن الإشارة إلى الفينومينولوجيا والفلسفات الإنسانية الأخرى ، فقد فتح الباحثون الجغرافيون الإنسانيون ، في جوانب عديدة ، الباب أمام أهمية التركيز على التجربة الذاتية والآراء والمعاني . وقد ساهم هذا التفاعل المبكر مع المنهجيات التي تركز على الإنسان في توجيه العديد من الاتجاهات الجديدة :

- التفكير النقدي في دور الباحث كعامل مشارك
- الاختيار والتكيف المتعمد للمنهجيات لتلبية الاحتياجات الخاصة لمواضيع البحث
- إمكانية البحث كعملية تمكين للأفراد
- التفاعل مع المعرفة كعملية (سياقية، ذاتية، سياسية) .

في إشارة إلى دراسة رولز ، ذُكرت ويدوفيلد (2000) مؤخراً باحثي الجغرافيا بأهمية التأمل الذاتي والعاطفة في العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه . وتقول إنه على الرغم من التوجه في السنوات الأخيرة نحو البحوث النوعية والتأملية ، فإن النقاشات والتحليلات حول منهجية البحث لم تتناول بشكل واضح تأثير مشاعر الباحث على عملية البحث . وكأننا أصبحنا نركز بشكل مفرط على قدرتنا على التعبير عن تجارب الآخرين ومشاعرهم ، حتى أننا تناسينا أو تجاهلنا قدرتنا على التعبير عن تجاربنا ومشاعرنا الخاصة. (2000: 205) تتضمن منهجيات البحث التي تركز على الإنسان الاعتراف بالذاتية في عملية البحث ، والوضوح في مشاركة الأفراد ، والتركيز على كيفية إيصال نتائج البحث ونشرها .

ملاحظة

لم تكن المقالات التأملية ذات طابع السيرة الذاتية شائعة في الجغرافيا الإنسانية ، حيث يتأمل فيها الباحثون في تجاربهم الشخصية (مثل هارت، 1979؛ تون، 1999).